ليلة حافلة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

منذ نحو ربع قرن — فقد صرنا نحسب مسافات الزمن بأرباع القرون ! — مات لنا قريب شاب ، أبوه من سراة الريف ، فرافقنا رفاقه على قطار خاص الى البلدة . وكانت العادة في تلك الأيام أن يظل الماتم قائماً أسبوعاً أو أربعين يوماً ، وكنت يومئذ مدرساً ، وكان الوقت صيفاً ، والمدارس موصدة ، ففي وسعي أن أشاطر القوم حزنهم الى آخر المدى ، فجاءني يوماً شاب من أقربائي ، وانتحى بي ناحية وأسر الي أن أخته تكاد تموت جوعاً ، فعجبت ، فان الخير كثير والطعام وفير ، وما يذبح كل يوم من الخراف والعجول يكفي جيشاً . فأخبرني أن الموائد توضع ثم ترفع كما هي ، لا تمتد الى ما عليها يد ، وأن أخته تستحي أن تتناول شيئاً ، ولكن نساء البيت بعد ذلك يتسللن الى حجرة قصية فيقبلن على الطعام ويلتهمن منه مالا يحسب الحاسب ، فهن يمكن عن المطعم علانية ويمترن منه سراً ، وأخته تنظر وتتحسر ، وقد التوت أمعاؤها من الجوع . ثم سألني :

« والآن ما الرأي ؟ أشر كيف تأمر ! »

فقلت له : « دع هذا لي »

وللشباب جمحاته وحماقاته — ركبت الى مدينة قريبة ، فاشتريت شيئاً من الرقاق الملفوف باللحم ، ومربى ، وألواناً من الحلواء ، وأرغفة ، وعدت وأنا أقول لنفسي : « هذا شيء ينفعها إذا نام الليل » ، ولم يكن من السهل أن أدخل البيت ومعي هذا الحمل ، تحت عيون هذا الخلق كله ، وماذا عساي أن أقول إذا سألني سائل عما لُف عليه الورق ؟ لهذا اضطررت أن ألف ، وأدور ، وأختبيء هنا وههنا ، حتى تيسر لي أن أبلغ غرفتي من غير أن يراني أحد ، وبقي أن أنتظر حتى يقبل الليل ، وتنقطع الرجل ، فأحمل هذه الربطة الى حريم الدار ، والله المسئول أن يوفقني الى الوصول الى قرينتنا الطاوية ، وأن يقيني عواقب هذه المجازفة ! وهل أعدم خادمة تدعوها الي أو تحمل اليها هذه الرسالة

وجاء الليل ، وقمنا إلى المخادع ، وكان لي في غرفتي شريك ،

فذهبت أدخن سيجارة بعد سيجارة ، حتى علا شخيره ، ففتحت الباب وأرهفت أذني ، فلم أسمع شيئاً ، فتوكلت على الله ، وأقدمت — أعني مشيت مترفقاً حتى خرجت من هذا البناء المُهَيّأ للضيوف ، إلى صحن واسع يفصل حريم الدار عن ثوي الرجال . وكان الليل طاخياً ، فلم أزل أتخبط حتى لمست باباً توهمته باب المنزل فدخلت ، ولكني لم أجد سلماً أرقى فيه ، فاستغربت ورحت أدور بالمكان ، ويدي على الجدار ، فكنت أجد أبواباً ، بعضها مفتوح ، والبعض مُوارَبٌ أو مغلق ، ولكن لا مرقاة ، فقلت أخرج من هذا التيه ، وتركت الجدار واندفعت ، ويداي أمامي لتتلقيا عني الصدمة إذا بلغت حائطاً أو شبهه ، وإذا باللفافة التي معي تلمس جسماً فيسقط منه شيء على الأرض فأفزع ، وأدع اللفافة تهوي ، ثم إذا بواحد يهجم علي فأقع وتتدحرج معاً على البلاط ، وهو ممسك برجلي يريد أن ينزعها ، وأنا أدفع في بطنه ، حتى تخلى عن رجلي فدرت على ركبتي ، وقد أيقنت من صمته أنه غريب واغل يتلصص ، وألفيت يدي على عنقه ، فأخذت بخنقه ، فلكمني بجمع يده فانقلبت على ظهري وقد تخليت عن رقبته ، فانقض علي ، فضربت برجلي فأصبت جنبه ، فمال عني فهضت على ركبتي وجعلت أضرب بيدي ، ولكن في الهواء ، حتى لمست رأسه فقبضت على شعره وجذبت بكل ما في من قوة ، فنطحني في بطني ، فانثنى بعضي على بعض ، فركلني برجله ، فتدحرجت كالكرة . فماذا يريد أن يجهز علي ، فأخطأني وخبط الباب برأسه فكأن قنبلة انفجرت في سكون الليل ، وإذا بصوت رجل يصيح :

« مين . . ؟ »

ثم انقطع الصوت ، لأن صاحبه على ما يظهر داس بعض الطعام الذي تبعثر في المكان ، فتزحلق فوقع على الأرض كالحجر ، وكنت أنا قد نهضت ، ولمست يدي باباً ففتحته ودخلت ، وأنا أسوي شعري وأمسح وجهي وأنفض التراب عن ثوبي ، وكانت هذه لحسن الحظ غرفتي ، فقد سمعت شريكي فيها يقول وهو يثب عن السرير

« ما هذه الأصوات ! ماذا جرى ؟ »

فقلت — وقد ارتدت الي نفسي — « لا أدري . . . يظهر ان هنا لصاً ، قم لننظر »

فصاح : « لص ؟ » وأسرع الى الشباك فنادى

« ياولد ! يا مخيمر ! يا مخيمر ! »

وفتحت الأبواب ، وأطلت منها رءوس النوّام — أو الذين كانوا نوّاما — وكثر اللغط ، وعلت الضجة ، واختلطت الأصوات ، وصار هذا يسأل عن الخبر ، وذاك يدعو مخيمر وغيره ممن نسيت أسماءهم من الخدم ، وثالث يصيح أن هاتوا نوراً ، ورابع يقول أين المصباح ؟ وخامس يسأل محتجاً « أليس مع أحدكم عود ثقاب ؟ »

وفي أثناء ذلك كان الذي وقع قد لامس خده المربى التي انكسر وعاؤها فسالت ، فلم يخالجه شك في أن قتلا حصل وأن هذا دم القتيل ، فكاد يموت من الرعب ، ولزم مكانه ولم يحاول حتى أن يرفع خده عن المربى ، وجاء مخيمر يحمل بندقيته ، ووراءه كثيرون غيره ، وفي يد أحدهم مصباح ، تقدم به — في حماية البندقية — وإذا بنا نرى « وكيل » صاحب البيت ، مطروحاً على وجهه ، ويداه ممدودتان ، وخده لاصق بالمربى ، وهو يرفع رأسه وينظر محاذراً ، ثم كأنما اطمأن قليلاً فجعل يطرف ، ويدير عينه ، فيبصر الوعاء وما سال منه ، فيمسح بعضه عن خده وهو ينهض ، فتجمعنا جوله وحففنا به ، وجعل بعضنا ينظر الى بعض مستغرباً متأففاً ، منكراً على هذا « الوكيل » الشره ، ألا يكون له همٌّ سوى بطنه ، وأن يزعجنا في لحمة الليل بهرشه ومحاولته أخفاء ما يأكل

ونظر إليه صاحب البيت نظرة سخط واشمئزاز ، وقال له :

« ماهذا ؟ مربّى ، ورقوق ، لم أكن أعرف انك مبطانٌ نهمٌ الى هذا الحد ؟ ؟ وقليل الذوق أيضاً ! حلواء في مأتم ! فهلا انتظرت حتى ينفض المأتم ؟ ؟ أم شامت أنت بي ؟ لعنة الله عليك وعلى والديك ! قم . . . قبحك الله ! ولا ترني وجهك ! »

فهمّ الرجل بأن يقول شيئاً ، فقد كان مظلوماً ولا ذنب له ، ولكن سيده أبى أن يسمع والتفت إلينا وقال :

« إن هذه فضيحة والله ! الخير كثير والحمد لله ، وفي وسعه أن يأكل ما شاء ، ويشبع ، اذا كان يمكن أن يشبع ، فانظروا ماذا صنع ؟ وبأي شيء يجزيني وقد رعيته وكفلته ولم أزل به حتى جعلته وكيلاً لي . وأميناً على أملاكي ! ! يشتري حلواء ومربى ورقاقاً ليأكلها خفية في مأتم ابني ! ! اخرجن يا كلب ! ولك وجه تقابلني به يا كافر النعمة ! والله لولا أنك حقير لأفرغت في قلبك الآن الرصاص . امش . . اخرج من عندي . . »

فقلت : « شيء فظيع ! »

وارتددت إلى غرفتي ساخطاً

* * *

ولبثنا ساعة نمزق أديم هذا الوكيل الشره الجحود الذي يأبى إلا أن يأكل حلواء في مأتم ابن سيده ! وأصبح الصباح فاستأنفت ألسنتنا هجوه وذمه . وكنت أشعر بعطف عليه ورثية له ، ولكني لم أكن أستطيع أن أذكر الحقيقة فأحوّل الى نفسي كل هذا اللعن الذي ينصب على رأسه . ودنا مني الشاب قريبي الذي كان سبباً في كل هذا ، وسألني همساً : « أتعرف حقيقة ما حصل أمس ؟ »

قلت : « لا . ولا أزال مستغرباً ما كان من هذا الوكيل »

قال : « إنه مظلوم ! »

قلت : « يا شيخ ! كيف يمكن أن يكون مظلوماً وقد رأيناه بأعيننا ؟ »

قال : « والله إنه لمظلوم ! »

قلت : « ربما يا أخي ! العلم عند الله ! »

قال : « فينا من يكتم السر ؟ »

قلت : « لا تخف . إن صدري بئر لاقرار لها »

قال : لقد احتلت حتى جئت بشيء من اللحم والخبز ، ولففته في ورقة ، وكنت أريد أن أصعد به الى أختي بالليل ، ولكني اصطدمت في الظلام بواحد كأن يريد أن يقتلني . . . »

فقلت مستغرباً : « يقتلك ؟ لماذا ! »

قال : لا شك أن هذا كان قصده ، فقد كان همه أن يقبض على عنقي ويضغط ، وكان يحرص على الصمت حرصاً شديداً ، وعندي دليل آخر : ذلك أنه لم يكد يسمع صوت الوكيل يصيح « مين » حتى اختفى فجأة ! »

فسألته : « وماذا منعك أن تستنجد ؟ »

قال : « وأفضح نفسي ؟ ماذا يقولون عني إذا رأوا مني هذه الأطعمة ؟ لقد كان كل همي أن أتخلص وأرتد الى غرفتي

قلت : « وكيف خطرت لك هذه الفكرة السخيفة ؟ »

قال : « ليست سخيفة . إنها طبيعية ، أول مايخطر للمرء »